المحاضرة الحادية عشر

العلاقات الخارجية في عهد الرشيد

اولا : العلاقة مع البيزنطيين

استمر الصراع بين المسلمين و البيزنطيين في عهد الرشيد الا ان الحروب بينهما لم تسر وفق خطة معينة بهدف فتح منظم او استقرار دائم بل كانت غزوات انتهت دون ان تغير من اوضاع الجانبيين . وكان الخليفة يكتفي بأخذ الجزية . الا ان الصدامات اظهرت تفوق المسلمين العسكري وقصر نظرهم في عدم استغلال الاوضاع الداخلية الحرجة التي كانت تمر بها الامبراطورية البيزنطية لتثبيت اقدامهم في المناطق المفتوحة والاستقرار فيها وان اضفت بهاء خاصا على عصره .

وجه الرشيد اهتمامه فور اعتلائه منصب الخلافة الى تحصين المناطق الحدودية المتاخمة لبلاد البيزنطيين وتقوية الجيش العباسي المرابط فيها . وقد حرص على الجمع بين سياستين متوازيتين هجومية و دفاعية . فإلى جانب النشاط الهجومي ضد الاراضي البيزنطية فإنه حرص على تدعيم الدفاعات عن المناطق الاسلامية المعرضة لغارات البيزنطيين . فأنشأ مناطق على الحدود داخل وحدات ادارية تتمتع بحرية ذاتية في تسيير شؤونها وفصلها عن مناطق الثغور الجزرية والشامية . ووضع لمنطقة الحدود نظامين :

الاول : النظام الامامي ، ويضم ثغور الجزيرة والشام التي خصصت لمواجهة الممرات الجبلية . فدعمها بالحصون و زودها بالحاميات .

الثاني : النظام الخلفي ، ويضم الاقاليم الخلفية والحصون الجنوبية وسماها العواصم . وتمتد من انطاكية الى الفرات . وكانت منبج عاصمة للعواصم ثم اصبحت انطاكية فيما بعد واختار الرشيد ابنه القاسم اميرا عليها . اما مهمتها فهي مساندة مناطق الثغور و امدادها بالعتاد والرجال والمؤن لذلك جهزها بالحاميات الدائمة والمؤن و الاعتدة الخاصة بضرورات الدفاع والمساندة .

وانشأ البيزنطيين من جانبهم خطا دفاعيا لمواجهة الثغور الاسلامية وضعوه تحت اشراف كبار القادة العسكريين ويضم سلسلتي جبال طوروس ويمتد من الفرات حتى كيليكيا . و ينقسم الى قسمين :_

الاول : يمتد من ملطية الى عين زربة وهو مخصص لمواجهة نشاط المسلمين من جهة شمالي العراق .

الثاني : مخصص لمواجهة نشاط المسلمين من جهة بلاد الشام .

هذا وقد ضمت منطقة الحدود التي اجتازها كل من الطرفين اثناء حروبهما حصون : ادنة و المصيصة و مرعش و الهارونية و الحدث و ملطية و طرطوس .

بعد الانتهاء من انجازات التحصين و الدعم ابتدأت الصدامات العسكرية المتبادلة . فنشطت حركة الصوائف . وانتهز العباسيون كل فرصة اتيحت لهم لزيادة ضغطهم العسكري . وقد نقل الرشيد في احدى مراحل المواجهات مقر اقامته الى الرقة ليكون قريبا من مسرح العمليات كما شارك بنفسه في بعض الصوائف وفتح حصن الصفصاف في عام (181 هـ / 797 م) . وتمكنت احدى فرقه من الوصول الى انقرة في عمق الاراضي البيزنطية و اجتاحت ثغر الاوبسيكون وبلغت افسوس على ساحل بحر ايجة .

وقفت امبراطورية ايرين عاجزة امام انتصارات المسلمين فمالت الى الصلح الذي تحقق في عام (183 هـ / 799 م) وتقرر بموجبه :

1_ تبادل الاسرى .

2_ تدفع ايرين جزية سنوية .

3_ تستمر الهدنة مدة اربعة اعوام .

استمرت الهدنة حتى عام (187 هـ / 803 م) حين دبرت مؤامرة ضد ايرين فخلعت عن العرش ، واعتلى نقفور الاول العرش البيزنطي الذي ظن انه يملك من القوة ما يكفي لمواجهة المسلمين ، فرفض الاستمرار في دفع الجزية التي تعهدت بها ايرين من قبل . ولم يكتفي بذلك بل طالب بإعادة ما دفعته الامبراطورية السابقة بحجة انها لم تفعل ذلك الا لضعف النساء مما اثار غضب وحنق الرشيد .

وجاء الرد على هذا التصرف سريعا فقد قاد الخليفة حملة عسكرية في عام (187 هـ / 803 م) وتوغل في منطقة كبادوكيا . ووجد نقفور نفسه عاجزا عن التصدي له فاضطر الى عرض الصلح والموادعة على خراج يؤديه كل عام مقابل انسحاب المسلمين من المنطقة وافق الرشيد على عرض الصلح وعاد الى بلاده مكتفيا بما حققه .

ويبدو ان تقفور اساء تقدير الموقف العسكري مرة اخرى فنقض العهد و هاجم في عام (190 هـ / 806 م) عين زربة والكنيسة السوداء و ادنة واستولى على طرطوس و ضيق على مرعش ولم يتمكن المسلمون من صده والوقوف بوجهه نظرا لانهماك الخليفة بقمع الحركات الداخلية المناهضة بالاضافة الى ان الظروف الطبيعية السيئة والبرد الشديد حالت دون العودة لمحاربته . لكن هذا الامر لم يدم طويلا . اذ ما كادت الامور الداخلية تستتب حتى قرر العودة الى المناطق الحدودية للانتقام من الامبراطور . فقاد حملة ضخمة عبر بها الحدود و توغل بعيدا داخل الاملاك البيزنطية ففتح هرقلة و امتلك طوانة و ارسل قوة عسكرية الى اقليم انقرة .

وشعر نقفور بعجزه من صد المسلمين او تخفيف ضغطهم على اراضيه وسيطر عليه الرعب و الضيق واخذ يبحث عن وسيلة للخروج من هذا المأزق ولم تكن هذه الوسيلة سوى الصلح فاتصل بالرشيد وعرض عليه السلام .

ولما كان الشتاء على الابواب فقد قبل الرشيد عقد معاهدة صلح معه تضمن البنود التالية :

1_ يلتزم نقفور بدفع الخراج و الجزية بمقدار ثلاثمائة الف دينار سنويا .

2_ يمتنع عن اعادة بناء او ترميم الحصون التي هدمها المسلمون مثل ك هرقلة و انقرة و دبسة و صفصاف .

3_ تعهد الرشيد من جانبه بعدم تخريب حصون ذي الكلاع و صملة و سنان .

4_ يرد للبيزنطيين معسكراتهم التي كانت في حوزته .

5_ تستمر الهدنة مدة ثلاث اعوام .

ادرك نقفور بعد قليل من الوقت ان النشاط الاسلامس المكثف جعل من منطقة جنوبي اسيا الصغرى منطقة نفوذ للمسلمين كما سيطروا على الطرق المؤدية الى النقاط البيزنطية المهمة ومن جهة اخرى فقد شعر بالمهانة حين قبل بدفع الجزية . لذلك قرر نقض الهدنة فأعاد ترميم الحصون التي حرمت المعاهدة تحصينها . وعندما علم الرشيد بذلك استأنف العمليات العسكرية ونحج في فتح حصن دبسة مرة ثانية .

ثم حدث ان تفرغ الرشيد للاهتمام بحل المشاكل التي استجدت في خراسان ولم تتهيأ له بعد ذلك ظروف مناسبة لمتابعة نشاطه الجهادي ضد البيزنطيين وكانت اخر عملياته تحقيق هدنة اخرى تم بموجبها تبادل الاسرى .

لم تقتصر حروب الرشيد مع البيزنطيين في اسيا الصغرى بل تعدتها الى البحر المتوسط في محاولات لاستعادة مركز المسلمين في الجزر القريبة من جهة ولمساندة الحملات البرية من جهة اخرى . فهاجمت البحرية الاسلامية البحرية البيزنطية كما هاجمت جزيرة قبرص في عام (190 هـ / 806 م) بعد ان نقض اهالي الجزيرة معاهدة الحياد التي ابرمت في عام (79 هـ) لتنظيم العلاقات مع كل من المسلمين والبيزنطيين . كما غزا المسلمون جزيرة كريت .

يعتبر عصر هارون الرشيد تجسيدا لحالة القوة التي كانت عليها الخلافة العباسية حتى اضحت مرهوبة الجانب . ويبدو ان هذا الخليفة ادرك ان ازالة الامبراطورية البيزنطية من الوجود امر يخرج عن حدود امكاناته لهذا اكتفى بإشغال البيزنطيين بأنفسهم واضعافهم و حرمانهم من العمل العسكري المثمر ضد المسلمين مما دفع نقفور بإعلان يوم وفاته في (الثالث من شهر جمادى الثانية عام 193 هـ / الرابع والعشرين من شهر اذار عام 809 م) عيدا للبيزنطيين .

ثانيا : العلاقة مع الفرنجة

شهد العالم الاسلامي في عصر الرشيد وجود دولتين اسلاميتين كبيرتين هما :

دولة الخلافة العباسية في المشرق ، والدولة الاموية في الاندلس . وانقسم العالم المسيحي انذاك الى دولتين كبيرتين ايضا هما : الدولة البيزنطية في المشرق ، ودولة الفرنجة الكارولنجية في الغرب . وقد استند بعض المؤرخين الغربيين على الخصومات الاقليمية كمبرر لحصول التقاء بعض هذه الاطراف على اهداف مشتركة فتقاربت الخلافة العباسية مع الفرنجة ، وتقاربت بيزنطية مع الامويين في الاندلس وكان لهذا التقاربات اسبابها و دوافعها وانعكاسات على العلاقات بين المشرق و الغرب .

لقد تباينت طبيعة العلاقات بين دولة الفرنجة والدولة الاموية في الاندلس عن طبيعة العلاقات بين الدولة الاولى و دولة الخلافة العباسية . وشهدت العلاقات بين الدولتين الفرنجة و الاموية حالة من التوتر و العداء بفعل تجاوزهما و اتجاهات المسلمين للتوسع نحو الشمال من جهة و محاولة الكارولنجيين السيطرة على اوروبا و وراثة الامبراطورية الرومانية من جهة ثانية مما ادى الى الاصطدام بينهما .

اما فيما يتعلق بالعلاقات الفرنجة و العباسيين فقد كانت بعيدة عن مطامح الكارولنجيين مما اتاح فرصة ملائمة لقيام علاقات سياسية بين الجانبيين .

هذا ولم تشر المصادر الشرقية اسلامية كانت ام نصرانية الى هذه العلاقات و انفردت المصادر اللاتينية بذكر الصلة التي ربطت الرشيد بشارلمان ملك الفرنجة لكنها تبدو مضطربة و غامضة مما يقلل من ثقة المؤرخين بها . ولعل ابرز المؤرخين الذين عالجوا هذه العلاقة هم اينهارد ، مؤرخ شارلمان وكاتب سيرته و الراهب سانت جول و الاخبار الملكية .

واستنادا الى هذه المصادر فقد ابتدأت العلاقات بين العاهلين في عام (181 هـ / 797 م) حين ارسل شارلمان و فدين الى الشرق الاول الى الخليفة الرشيد و الثاني الى بطريرك القدس . تكونت البعثة الاولى من ثلاثة افراد اثنين من الفرنجة و الثالث يهودي يدعى اسحاق الذي قام بأعمال الترجمة لكن هذه المصادر تخلو من ذكر مكان مقابلة شارلمان للرشيد .

ويبدو ان اعضاء البعثة بحثوا مع الخليفة سبل تقوية التعاون بين الدولتين كما طلبوا من الرشيد منح تسهيلات للحجاج الكاثوليك الى الاماكن المقدسة وحمايتهم من الارثوذكس . ويذكر اينهارد ان هدف السفارة هو الحصول على فيل من عند الخليفة .

استغرقت رحلة البعثة مدة ثلاثة اعوام توفي اثنائها الفرنجيان وعاد اسحاق وحده مع فيل هدية من الرشيد الى شارلمان . وفي عام (183 هـ / 799 م) ارسل الرشيد بعثة الى البلاط الفرنجي تألفت من عضوين احدهما فارسي يمثل الخليفة و الاخر مغربي يمثل ابراهيم بن الاغلب . وقد وصلت

الى آخن عاصمة الكارولنجيين في الوقت نفسه الذي وصل فيه اسحاق ويبدو انها كانت ردا على سفارة شارلمان الاولى له .

ثم ارسل شارلمان سفارة ثانية الى الرشيد في عام (186 هـ / 802 م) كما ارسل الرشيد سفارة ثانية في عام (192 هـ / 807 م) .

وحدث اثناء وجود السفارات الغربية في الشرق ان حصل تقارب ودي بين بطريرك القدس و شارلمان وتم تبادل السفارات والهدايا من الجانبين . و ارسل البطريرك الى الملك الفرنجي مفاتيح كنيسة القيامة و مفاتيح مدينة القدس و راية . ولا تشير المصادر الى اي مطالب تقدم بها البطريرك الى شارلمان .

اما فيما يتعلق بالدوافع التي ادت الى قيام العلاقات بين الجانبين فهي :

دوافع الرشيد :

- ان الخصومة التقليدية بين المسلمين والبيزنطيين دفعت الخليفة العباسي الى القضاء على نفوذهم المعنوي بين مسيحيي الشرق عن طريق تقوية صلاته بالغرب .
- عداء الخليفة العباسي للامويين في الاندلس و رغبته في اعادة هذه البلاد الى كنف الخلافة العباسية .

دوافع شارلمان :

- رغبة الملك الفرنجي في السيطرة على اوروبا بما فيها الاندلس بهدف وراثة تاج الامبراطورية الرومانية و حاجته الى تأييد الخليفة المعنوي حتى لا يواجه معارضة من قبل عرب الاندلس كما واجه في حملته على هذه البلاد في عام (162 هـ / 778 م) التي انتهت بالفشل .
- الخلاف بينه وبين الامبراطور البيزنطي حول وراثة تاج الدولة الرومانية .
- رغبته في اعطاء تسهيلات لرعاياه الراغبين بالحج الى الاماكن المقدسة وفي تكوين نفوذ معنوي له في تلك الاماكن .
- العداء بين البابا ، حليف شارلمان و بطريرك القسطنطينية وتنافسهما حول السيادة الروحية على العالم المسيحي .

لكن نمط هذه العلاقة وتلك الدوافع الكامنة وراءها اثارتا جدلا بين المؤرخين لم تنته فصوله .

فمنهم من نفى حصول هذه العلاقات وانكر بالتالي قيام اي علاقات سياسية بين الدولتين العباسية و الكارولنجية ولم تتعد الصلات التجارية افرادا من رعايا الدولتين دون الخلفاء و الملوك .

وهناك فئة من المؤرخين عللت اهداف تلك السفارات من خلال الدوافع الدينية التي شكلت ابرز اسبابها وذلك من زاوية الحفاظ على حرية المسيحيين بزيارة الاماكن المقدسة في فلسطين وتأمين الحماية لهم . وقد حصل شارلمان على وعد من الرشيد بتحقيق ذلك .

وهناك فريق ثالث من المؤرخين يرى فيها اتجاها سياسيا بهدف توحيد الرؤية السياسية بين الدولتين باعتبارهما تشتركان في كثير من مظاهر الدولة السياسية في ذلك الوقت .

ويرى فريق رابع من المؤرخين ان تلك دوافع تلك السفارات هي محاولة عقد تحالف بين الدولتين بهدف وقوف الرشيد ضد الدولة البيزنطية ووقوف شارلمان ضد الدولة الاموية في الاندلس وذلك بحكم عداء كل من العباسيين للامويين والفرنجة للبيزنطيين .

لكن الحقائق التاريخية تنفي اي احتمال لقيام مثل هذا التحالف السياسي بين العاهلين بدليل :

1- ان تاريخ هذه السفارات كما ورد في المصادر يتزامن مع الاتصالات السياسية بين الامبراطورية البيزنطية ايرين من جهة ، و شارلمان من جهة اخرى ، لحل الخلافات بين الدولتين حول مقاطعتي استريا و دلماسيا بالطرق السلمية وقد استمرت هذه العلاقات الطيبة بشكل عام بين شارلمان وخلفاء ايرين نقفور و ميخائيل الاول .
2- لم يكن الرشيد بحاجة الى مساندة الغرب في صراعه مع البيزنطيين لانه كان المنتصر عليهم وذهب بعيدا في تأكيد انتصاره حين فرض الجزية عليهم لذلك لم تكن العلاقات العباسية البيزنطية بحاجة الى مسوغ لاتصال العباسيين بالفرنجة من اجل عدائهما المشترك لبيزنطية .
3- لا يوجد اي دليل على ان مسيحي الشرق كانوا يشكلون خطرا على سلامة الدولة الاسلامية في عهد الرشيد او ان اوضاعهم كانت سيئة في ظل الحكم العباسي . وقد عامل الخلفاء العباسيون في العصر العباسي الاول النصارى من رعايا دولتهم وفقا لأحكام الشريعة الاسلامية في معاملة اهل الذمة وقد بلغ بعضهم مكانة رفيعة في قصور الخلافة وتبوأ بعضهم مناصب ادارية في الادارة العباسية مثل جرجس بن جبرائيل وابنه بختيشوع الطبيب .
4- لا يتمكن للرشيد ان يتنازل عن حقوقه السياسية في الاماكن المقدسة في فلسطين ليتولاها الملك الفرنجي كما لم يكن وضع النصارى في فلسطين يستدعي من البطريرك ان يطلب حماية ملك الفرنجة . و افتقرت المصادر الفرنجية و بطريرك بيت المقدس وهناك اشارة غامضة الى ملكية الموقع المقدس .
5- ان نظرية حماية شارلمان للاماكن المقدسة هي اسطورة اخترعها المؤرخ الراهب سانت جول الذي كتب حوالي خمسين عاما بعد وفاة شارلمان . اذ جمع هذا الراهب معلومات عن السفارات و الهدايا المتبادلة ليكون قصة مضمونها ان الرشيد تنازل لشارلمان عن السيادة على فلسطين و ارسل اليه وارداتها في محاولة لإعادة بسط سيطرة النصارى على الاماكن المقدسة .

6- ان تقديم مفاتيح كنيسة القيامة والقدس بالاضافة الى الراية من قبل بطريرك بيت المقدس لشارلمان لا يمكن ان يعطى معنى سياسي لان الرواة لم يعلقوا عليه مثل هذه الاهمية ويتفقون على انه كان من باب الدعاء و التبريك و الجدير ذكره ان بطريرك بيت المقدس لا يستطيع القيام بخطوة هامة ذات ابعاد سياسية دون الحصول على موافقة الخليفة الذي تخضع بيت المقدس لدولته .
7- لا يوجد ما يدعو الى قيام عوامل ثقة بين العاهلين . ومن المستبعد ان يتفق الرشيد مع شارلمان على ضرب مسلمي الاندلس خاصة انه لم يفكر جديا في استعادة هذه البلاد في وقت اضطر فيه الى التخلي عن افريقيا .
8- لم تشر المصادر الشرقية اسلامية كانت ام مسيحية الى هذه السفارات مع انها اشارت الى سفارات تبودلت بين الرشيد و ملك الهند .

و الراجح احتمال وجود نوع من العلاقات التجارية والسياسية التي لم تأخذ شكلا من اشكال التحالف السياسي وان المسؤول عنها هم التجار اليهود الذين كانوا حلقة الوصل بين الشرق و الغرب يتاجرون بين فرنسا والاقطار الاسلامية و الصين خاصة وان اساليب التجار آنئذ ان يدعو بأنهم سفراء لتسهيل مصالحهم .

ولاية العهد _ وفاة الرشيد

اختار الرشيد في عام (175 هـ / 791 م) ابنه محمد الامين وليا على للعهد مع انه لم يكن قد تجاوز الخامسة من عمره و فضله على اخيه الاكبر عبد الله المأمون بتأثير زوجته زبيدة و اخواله بني هاشم و الفضل بن يحيى الا ان بعض بني هاشم انكروا بيعته نظرا لصغر سنه .

وفي عام (183 هـ / 799 م) بايع الرشيد لابنه عبد الله المأمون بولاية العهد بعد الامين وولاه خراسان و ما يتصل بها من همذان الى اخر المشرق وكان ذلك بتأثير جعفر بن يحيى .

وفي عام (186 هـ / 802 م) بايع الرشيد لابنه القاسم بعد المأمون ولقبه المؤتمن وولاه الجزيرة و الثغور والعواصم وكان ذلك بتأثير عبد الملك بن صالح مربي القاسم .

وهكذا وقع الرشيد في خطأ اسلافه بفعل خشيته على الحكم من بعده . و بدا هذا التعيين لأولياء العهد و تجزئة الدولة بينهم وكأنه خطر يهدد الدولة بالحرب الاهلية . و فعلا ادى التنافس بين الاخويين الكبريين المأمون والأمين في حياة الرشيد الى تخوف الخليفة على مستقبل الدولة بعد وفاته . اذلك

عقد عدة جلسات متتالية لبحث هذا الموضوع مع وزرائه و مساعديه واقر الرأي على اخذ العهود على الاميرين في الكعبة بالوفاء بما في تسمية العهد الخاص بكل منهما .

وحج الرشيد في عام (186 هـ / 802 م) واصطحب معه ولديه لتنفيذ ما اتفق عليه . فأخذ العهد عليهما بألا يتدخلا في شؤون بعضهما البعض وفي شؤون اخيهما الؤتمن . وعلق نسخة من العهد في فناء الكعبة ليزيد في قدسيته ويؤكد تنفيذه .

خرج الرشيد من بغداد في عام (193 هـ / 808 م) قاصدا خراسان لوضع حد لثورة رافع بن الليث واستخلف ابنه محمد الامين على بغداد و اصطحب معه ابنه عبد الله المأمون . وكان الرشيد يشكو من علة في بطنه و يرتدي حزاما من حرير لتسكين الالم . ولما وصل الى طوس في شهر صفر اشتدت عليه العلة حتى عجز عن القيام . وتوفي ليلة السبت لثلاث خلون من (شهر جمادى الاخرة 193 هـ / شهر اذار عام 809 م) .